طرائف من العصر المملوكي :

العلاقات الاخوانية
وصلتها بالأدب

للأستاذ محمود رزق ســـليم

نزعة الأدب فى نفس الأديب المطبوع ، أشبه شيء بالغريزة الإنسانية . فهى قوة كامنة فيهـا ، تتحرك من تلقاء نفسها ، وتقوم بعملها الحيوى فى حياة الأديب . فتقرأ وتستقرىء وتطلع وتتصفح ، وتختزن وتقرن ، وتمزج ثم تلد وتصور وتلون ، وتهب لأجنتها ما تشاء لها مقدرتها من أسباب القوة والبقاء . ثم تدفع بنتاجها إلى اللسان فينفثه سحراً حلالا ، أو إلى القلم فيبعثه زهراً وضيئاً ، ترى من خلاله حياة نابضة ، وروحاً متحركة ، تلعب دورها ، وتؤثر أثرها .

والغريزة بحاجة إلى التربية والتهذيب والتثقيف ، حتى توجه إلى خير السبل لإسعاد المرء وإسعاد مجتمعه . ولا يبعد عنها فى ذلك ، نزعة الأدب ، فهى بحـاجة إلى أن تتعهدها يد التربية والتهذيب والتثقيف ، وإلى أن يسلك بها مسالك ثقافية خاصة ، حتى تفره وتحذق ، ويتسع أمامها المدى ويرحب أفقها ، ويلطف حسها ويدق إدراكها . وكلما كان الأديب أكثر من غيره ثقافة ، اتسع رحابه ، وسما إنجابه ، وأشرق وأمتع فنه .

غير أن النزعة الأدبية ، مهما كانت طاغية باغية ، ثائرة فائرة ، يقظة ساهرة ، قد يصيبها الفتور ويغشيها الفتور ، فيخبو زندها ، ويكبو جوادها ، ويتطامن إنتاجها ، وتقل الروعة فى فنها . حتى تتاح لها منشطات تنهض راكدها ، وتثير راقدها . وتثير فيها من جديد مظاهر الحياة الصحيحة والحركة . ولعـل هـذه الناحية أقوى وجوه الشبه بينها وبين الغريزة ، إذ لولا مايعرض للغريزة من مثيرات ودواعٍ ، لماتت ألواناً من الكبت ، قد تفضى بها إلى الموت .

وتتشبث النزعة الأدبية — ككل كائن حى — بأسباب بقائها . وقد درجت الطبيعة على أن تبذل لها بين الحين والحين ، من أسباب البقاء ما يذكى فيها عوامل الأمل والرجاء . وحينذاك تندفع فى طريقها جادة نشيطة مجاهدة مجالدة ، حتى تؤدى رسالتها فى الحياة .

وقد درجنا ، ونحن ندرس تاريخ الأدب العربى ، على أن نسمع بين الآن والآن ، بضروب من التشجيع — أوقل بألوان من أسباب البقاء — تتاح للنزعات الأدبية ؛ فمن عطية أمـير ، إلى منحة وزير ، إلى ثقافة حافلة إلى آذان صاغية وقلوب واعية ، إلى حوافز من صداقات ومودات ، إلى غير ذلك .

والعلاقات الإنسانية كانت وما تزال ، ذات أثر بعيد المدى ، فى حياة النزعات الأدبية . فالأديب لا يعيش فى الدنيا وحيداً . حتى ولو آثر العزلة ، فجميع ما حوله ومن حوله ، ذو أثر فعال فى حياته واتجاهاته ، وعواطفه وانفعالاته . ومن أوثق هذه العلاقات ، العلاقات الإخوانية .

ونعنى بالعلاقات الإخوانية ، صلات الود ووشائج الصداقة بين الأنداد والنظراء . وهى من العوامل الدائمة المشتركة بين كل العصور الأدبية ، ومن مسـعرات نزعاتها ، وحافزات روحها ، وموجهاتها . وهى بتأثيرها فى الناحية الأدبية ، بحاجة إلى دراسة مستقلة خاصة مستفيضة ، تتلمسها فى كل عصورها ، وتبرز آثارها فى كل عصر منها ، وتوازن بين آثارها فى عصر وعصر ، وتوازن بين آثارها وآثار غيرها من العوامل .

ولعـل العلاقات الإخوانية أقوى أثراً فى النزعات الأدبية ، وأبعد توجيهاً لهـا فى العصر المملوكى ، بالقياس إلى غيرها من عوامل النهوض الأدبى فيه . ففى العصر المذكور قلت عوامل التشجيع وأسباب الحفز الأدبى ، فى جملتها ، بالنسبة إلى ما سبقه من العصور . واتجه الكثير منهـا إلى الحركة العلمية البحتة ، فجذب بضبعها ومد فى بقائها ، وهيأ لها أسباب الحياة والنمو . أما الحركة الأدبية فقد نالها منها صبابة يسيرة ، وثمالة متوارية ، لا تبعث نشوة ولا تهز عطفاً . لقـد ضوحت عوامل التشجيع الأدبى ، ويبس عودها وذبل زهرها ، وأصبحت لا تهر عيناً . فلا نوق هرم ، أو عصافير بنى جفنـة ، ولا دنانير هشام أو بدر الرشيد ، ولا مجالس المأمون أو محافل المتوكل ، ولا أريحية بنى حمدان أو ذهب العبيديين ، بمغربة جنان شاعر ، أو بحرية لسان ناثر فى هذا العصر .

وككل كائن حى ، أخذت النزعات الأدبية فيه ، تتلمس لنفسها أسباباً أخرى من أسباب البقـاء . فصادفتها العلاقات

الإخوانية ، فاتخذت منها إلى الحياة سبباً ، وإلى البقاء وسيلة . وتشبثت بها أو اصطنعتها أداة لمعالجة عملها وإبراز فنها . والفن هنا قد تنقصه الدقة ويخطئه العمق ، ولكن لا تنقصه الصراحة ولا يجافيه الصدق . إذ هو نتيجة علاقات قلبية ، ورجع مودات نفسية ، لا حاجة بها إلى الزيف والتلفيق .

وقد ظللت الكثيرين من أدباء العصر المملوكي رايات المودة والصحبة الحسنة ، فعاشوا إخواناً متحابين في الأدب ، يسعد أحدهم الآخر كما يسعد الغريب الغريب . وقد نوهنا في بعض مقالاتنا السابقة بشيء من هذه العلاقات ، وآثارها ، كعلاقات السبعة الشهب . وصحبة الجزار والوراق .

وقد روى صاحب فوات الوفيات أن الأديب كمال الدين بن العديم كان إذا قدم مصر يلازمه أبو الحسين الجزار . حتى كانت هذه الملازمة مثاراً لتندر بعض أهل العصر عليهما ، فقال ، وفيه تورية :

يا ابن العديم عدمت كل فضيلة وغدوت تحمل راية الإدبار
ما إن رأيت ولا سمعت بمثلها نفس تلذ بصحبة الجزار

وبهذه الصحبة فتح الأدباء مغالق أبواب أدبية واسعة ، ما بين منثور ومنظوم . وأكثر الشعراء من التهاني والتعازي ، والتشوق والحنين ، والمماتبة . وتقارضوا الثناء ، وأفاضوا في المعارضات والمطارحات والمساءلات ، وجدوا في المهاجنة والمفاكهة والملاغزة والمحاجاة ، ونهضوا للاجازة والاستدعاء ، إلى غير ذلك .

والحق أن الشعر — بخاصة — قد ظنت به حينذاك الظنون ، وأرجف الناس من حوله . حتى إن بعض أهله أوجس خيفة ، فنعوا عليه ، وندبوا أنفسهم ، وشكوا كساده ، وفضلوا عليه الحرف الدنيا . وهذا أبو الحسين الجزار المصري الشاعر ، يقول — وقد هجر الشعر والتكسب به ، واحترف الحرارة :

كيف لا أشكر الجزارة ما عـ شت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيـ ني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ولعل أبا نواس رد عليه ، وهو رد يؤيدنا في أن الشعر ربح في هذا العصر حياة فيها صراحة وصدق ، قول ابن الوردي :

قالوا لقد كسد الفريض فقلت بل عاشت ضراغمه ومات ضباعه
الآن طاب سماعه وتقطعت أطماعه وتعززت صناعه

نقول إن العلاقات الإخوانية كانت خير معين للشعراء على إبراز شاعريتهم دون زيف ، وإظهار فنهم دون تلفيق . فكان صدى لنفوسهم ومرآة لحوادثهم . وقد حدث صاحب مسالك الأبصار عن أبي الحسين الجزار المصري السابق ذكره ، فقال :

« حكي أن السراج الوراق وأبا الحسين الجزار ، خرجا في عهد صباهما ، والشباب أعقد حباهما ، ريدان النزهة . فوجدا غلاماً زامراً ، يتمنى منه اللقاء ، ويجتمع فيه الغصن والورقاء . يتلفت بصفحة القمر النير . ويطرب كأنما زمره مما أوتي آل داود من المزامير . فلفتاه إليهما الأمر . وظنا أنه ستليه لهما الخمر . فأتيا به دير شمران وصعدا إليه . فوجدا راهباً يصدع حبه الفؤاد . ويطلع قمره ولا شيء أحسن منه في ذلك السواد . فزاد سرورهما بحصول الزامر والراهب . وأيقنا ببلوغ المآرب . فلما حميت فيهما سورة الحميا . وظن كل منهما أنه قد حصل له فراشه وتهيأ . فطن الزامر والراهب لمرادهما ، فتركاهما ومضيا قبل التمام ، وتركاهما وكل واحد منهما يشكو ضجيعاً لا ينام . فقال السراج :

في فخذها لم يقع الطائر لا راهب الدير ولا الزامر

فقال أبو الحسين الجزار :

فسعدنا ليس له أول ونحسنا ليس له آخر

فقال السراج :

فالقلب في إثرها هائم

فقال الجزار مكملا :

والقلب من أجلها حائر »

وفي هذه القصة ما يصور حياة هذين الماجنين ، وهما مثل لغيرهما أو لكثير غيرهما من أدباء العصر .

ويقرب من هذه الحادثة ماروياه صاحب فوات الوفيات قال :

« حكي أن نور الدين علي بن سعيد المغربي صاحب المرقص والمطرب ، مر مع جماعة من الأدباء بالديار المصرية ، ومنهم أبو الحسين الجزار ، فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة ، وقد هب الهواء فكشف ثيابه عنه . فقال أبو الحسين الجزار ، قموا لينظم كل واحد منا في هذا شيئاً . فما لبثوا حتى قال نور الدين علي بن سعيد :

الريح أقود ما تكون لأنها تبدي خبايا الرد والأعكان

وتميل بالأغصان عند هبوبها حتى تقبل أوجه الغدران
فلذلك العشـــاق يتخذونها رسلا إلى الأحباب والأوطان

فقال السراج الوراق :

ما أعلم أن أحداً منا يأتي بمثل هذا . سيروا بنا . »

نقول : وهذه مطارحة لم تتم أدوارها ، ومباراة لم تبلغ مداها

وقد نظم الصاحب فخر الدين بن مكانس قصيدة طريفة فكاهية ، داعب بها صديقه الأديب الشيخ بدر الدين البشتكي ، ووصفه فيها يوم « أنس الهايل » ، وكان الشيخ بدر الدين في اليوم المذكور قد وضع نفسه موضع الثور من الساقية ودار بها ، فقال ابن مكانس :

دورة البدر في ســواق الهايل تركت أدمع العيـون هوامل
آه من للرياض ثور أديب مظهر من كلامه سحر بابل
فاق سمياً على بني عجل في الجو دوأغنى عن الولى الهاطل

وقد مزج ابن مكانس في أبياته بين ألفاظ الرياض والري والماء ، وألفاظ الأدب والشعر مزجاً لطيفاً ، واستعار من إحداها للأخرى ، ووصف الرياض خلال ذلك ، وما فيها من أزهار وأغصان ، مع توريات جميلة ، وتلميحات بارعة ، تناسب الموضوع ضمن أبياته يخاطب صديقه :

يا سميدا أثرى من النظم والنث ر فأنسى الورى زمان الفاضل
قد سقيت الرياض ياشيخ بالدو رفها غصنها من السكر مائل

وقوله :

وغـداً بالظلال كل أديب في هجير الرمضا بفضلك قائل
وبروحي عيون نرجس روض تفتح العين بالندى وتنازل
أنت شنفتها بشـعرك زهراً وبعثت المياه فيها خلاخل

وقوله :

أنت لو لم تكن بحار علوم ماجرت في الرياض منك جداول
أنت عندي أجل قدراً من النو ر وقد درت للوجود الحامل
وغدا الفن بين لفظك والرو ض على الحالتين عندك باقل

ومن الإخوانيات ما تبادله صفي الدين الحلي ، وجمال الدين بن نباتة ، من شعر تعاتبا فيه وتقارضا الثناء ، فقد أرسل صفي الدين إلى صديقه قصيدة في هذا المعنى ، قال في مطلعها :

من لصب أدنى البعاد وفاته إذ عداه وصل الحبيب وفاته
فاه من لفما الأحبة عيش كان يحنى قبل الوفاء فواته
كان ثبتاً قبل التفرق لكن زعزعت روعة الفراق ثباته

ومنها يقول :

كنت مستنصراً بأسياف صـــبري فنبت بعـــد فرقة ابن نباتة
فاضل ألف الفصاحة والد لم وضمت آراؤه أشـــتاته
رَبَّ شعر لم يتبع ما روى النا ون لكن بالفضل يهدي غواته الخ

وقد أجابه ابن نباتة بقصيدة طلية في المعنى ، ومن البحر والروي ، قال في مطلعها شاكياً متنزلا في رقة :

ما لظبي الحي إليـــه التفاته بعـد ما كدر المشيب حياته
لج بالهـوى وإن نفرت أيـــدي الليالي غزاله ومهاته
كلما قيـل قد سلا عن فتـاة عاده الحب فاستجد فتـــاته

ومنها :

بأبي فاتر اللحـــاظ غرير رام تشبيهه الغزال ففـــاته
سائل الحسن إن رنا وتثنى ســـل أسيافه وهز قناته

ومنها يخاطبه :

يا مفيـد الورى لآلىء بحر يعرف الذوق عـذبه وفراته
وصل العبـد من قريضك بر مر أحبابه وساء عداته .. الخ

وعلى ذكر ابن نباتة نقول إنه كان قد وقع بينه وبين صديقه صلاح الدين الصفدي جفاء ، ولعل ذلك بسبب مرقات الصفدي الشعرية من ابن نباتة ، والتي جمعها ابن نباتة في كتابه « خبز الشـعير » . فتعاتبا عتاباً شعرياً قاسياً ، وقد ضمن كل منهما قصيدته إعجازاً من معلقة امرىء القيس ، وسلكاها في نظمها مع توافق في المعاني ، حتى لكأنها أصيلة فيه .

قال الصفدي :

أفي كل يوم منك عتب يسوءني بكيت ودمعي حطه السيل من عل
وترمي على طول المدى متجنياً بسهميك في أعشار قلب مقتل
فأمسي بليل طال جنح ظلامه على بأنواع الهموم ليبتلي . الخ

فقال ابن نباتة متقبلا صافحاً :

فطمت ولاني ثم أقبلت عاتباً أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
روحي ألفاظ تعرض عتبها تعرض أثناء الوشاح المفصل
فأحييت وداً كان كالرسم عافياً بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تعفى رياح العذر منك رقومه لما نسجتها من جنوب وشمأل الخ

وقد بعث الصفدى بعد حين إلى ابن نباتة يستجيزه رواية آثاره الأدبية ، فأجازه ابن نباتة وكتب له « إجازة » بعبارة أدبية هى نموذج لنثر هذا العصر .

ومن يقرأ كتاب « الحان السواجع » للصفدى ، يجد فيه نماذج عدة للاخوانيات الشعرية فى عصره . ودواوين الشعراء فيه ملأى بهذا الضرب الشعرى .

ومما يذكر أن الصحبة كانت قد عقدت أواصرها بين ناصر الدين بن البارزى أحد كتاب العصر البارزين ، وابن حجة الحموى الشاعر الكاتب الناقد . ويوحى من ابن البارزى نظم ابن حجة بديميته فى مدح الرسول عليه السلام . وأبرز فى أبياتها ألواناً عدة من البديع ، وعارض بها بديميتى عز الدين الموصلى والصفى الحلى . وكان كلما نظم بيتاً قرأه على صديقه ابن البارزى حتى يصير صالحاً . ولما انتهى ابن حجة من نظم بديميته ، شرحها ووازن بينها وبين بديميتى الموصلى والحلى ، دارساً أنواع البديع مستشهداً عليها بكلام المتقدمين من نثر ونظم ، موازناً بينها أيضاً ، مبيناً مذهب البعض فى البديع ، متكلماً عن شعراء عصره وأدبائه ومذاهبهم فيه أيضاً ، وهكذا ترى أن ابن حجة قد ألف كتاباً ممتعاً فيه علم وأدب وتاريخ ونقد ، وهو « خزانة الأدب » .

ويعد فاصلنا بهذا الحديث الموجز ، وبهذه الحوادث المقتضبة ألمعنا إلى الدور الهام الذى أدته الملاقات الإخوانية على مسرح الأدب فى العصر المملوكى .

(الاسكندرية)

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

جامعة فؤاد الأول

إدارة التوريدات

قلم المشتريات — إعلان

تعلن جامعة فؤاد الأول عن مناقصة عامة لتوريد ورق مطلوب لطبعتها وتقدم العطاءات باسم حضرة صاحب العزة سكرتير عام جامعة فؤاد الأول بحدائق الأورمان بالجيزة على استمارة مختومة بخاتم الجامعة تطلب من إدارتها بالجيزة على ورقة تمغة من فئة ٣٠ مليما بظهر دفع مبلغ ٢٠٠ مليم مائتى مليم عن كل نسخة وذلك ما بين الساعة الثامنة صباحاً والثانية عشر ظهرا من كل يوم من أيام العمل الرسمية وآخر ميعاد لتقديم العطاءات هو الساعة العاشرة صباحاً من يوم الأثنين الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٩٤٨ ويكتب على الظرف من الخارج عطاء عن ورق لطبعة الجامعة وكل عطاء يقدم على غير الاستمارة المختومة او غير مصحوب بتأمين ابتدائى قدره ٢٠٪ من قيمته لا ينتفت إليه ١١٦

جامعة فؤاد الأول

كلية الآداب

تعلن كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول عن حاجتها لملء وظيفتى معيدين من الدرجة السادسة بقسم الجغرافيا بها ويشترط فى المرشح أن يكون حاصلاً على درجة الليسانس الممتازة من قسم الجغرافيا بكلية الآداب أو على درجة الليسانس العادية بتقدير جيد جدا على الأقل

وتقدم الطلبات فى موعد لا يتجاوز ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٨

باسم حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب موضحاً بها المؤهلات الدراسية وجميع مايتصل بالطالب تفصيلا ٤٧

مبـــادىء فى القضـــاء الشرعى

الأستاذ الزين القاضى

كتاب يفيد القاضى والمتقاضى والمحامى والفقيه

يطلب من دار الرسالة بالقاهرة

وثمنه ٢٠ قرشاً عدا البريد

يا بنت وايزمان . . .

للأستاذ ابراهيم الوائلي

ماذا وراءك يا رمال البيـد ... أعزيف جن أم زئير أسود ؟
دوّى الفضاء فأى حشد زاحف ... غمر اليفاع ، وأى خفق بنود !
دنيا من التاريخ ربع جلالها ... فتنفست عن عدة وعـــديد
وتحفزت فإذا السرايا طلع ... تطوى الجبال ليومها المشهود
هبت فأية أمـــة لم يثنها ... ما كان من عسف ومن تهديد
وتفجرت حمما فذوق بأسها ... يا من عبثت بسلمها المنشود
وتفاءلى بالنحس يا مولودة ... بين القبور فأنت شر وليد
فى التيه كان أبوك يفترش الحصا ... ويطوف بين الشوك والجلمود
ويعيش فى دنيا الظلام، ولم يكن ... كأبيك أجدر بالليـالى السود
وأتيت أنت ، وما ضحكت لحادث ... إلا لطيف شبابك الموؤود

* * *

يا بنت «وايزمان» أى براثن ... أنت التى قوضت كل مشيد ؟
هـذا الشرد فى المفاوز هل له ... غير الصحارى الجرد والصيخود
قذفت به الآفاق شر مطارد ... فأراح بعـد الذل والتشريد
واستطعم البلد الكريم فما رأى ... غير النعـــيم وظله الممدود
فإذا به يسعى ليصبح سـيداً ... من لم يعش فى الأرض غير مسود !

* * *

يا بنت « وايزمان » لم أر طفلة ... إلاك منـــذرة بشر وعيد
ولدتك فى مهد الجحيم سياسة ... شوهاء ، ما أشقاك من مولود
هـذى القنابل وهى تمطر ثرة ... عن جانبيك وصرخة البارود
والدفع الضخم المجلجل صوته ... فى جنب كل مجاجل عربيد
والزاحفون عليك فى هبواتهم ... من كل جبار الجنـان عنيد
والطائرات تشق آفاق الدجى ... وتثير صـــارخة أزيز رعود
وافتك أحنى من عواطف مرضع ... تحميك بين سـواعد وزنود
وأنتك من شتى الجهات أنامل ... حمر تداعب منـك حمر مهود
فترقبى سيل الكتائب عارماً ... أوفى على تاريخك الممـدود
واستقبلى زمر الجنود تلاحقت ... غاراتها موصولة بجنـــود
من كل خواض الدماء إذا انتخى ... لبس الحديد على أمض حديد
أبنـاء يثرب والفرات وجلق ... والنيـل ، يا للزاحفين الصيد
الذائدين عن الديار غزاتها ... والحارسين تراث خير جدود
والقائلين إذا استثيرت عزمة ... للأرض يا ذات الشوامخ ميدى

* * *

يا بنت « وايزمان » أية قصة ... خطتك فوق الماء كف بليد !
وخرافة العصر الحديث أما رأوا ... إلاك ضحكة « مجلس » محشود!
هم قهقهوا فخرجت من أفواههم ... زبداً تناثر فوق « تل » جليد
ما ذا لإسرائيل يالك نبـأة ... مكذوبة حتى على التلمود ؟ !
قد لفقتك عصابة متبـــوذة ... ما بين مهزوم وبين شريد
وتعهدتك عصائب أمثالهـــا ... من « عابد » ذهباً ومن « معبود »
أزمرة العجـل المجوف يبتنى ... ملك وقد عاشوا أذل عبيد ؟
أم للذين تعاهـدوا وتحالفوا ... ألا يدينوا باحترام عهود ؟ !
الغادرين وتلك أم طبـاعهم ... تصل الطريف بأوليات تليد
لكنه الغرب المـــدل رأيه ... يملى على حنق وغل حقـود
المستعز بقوة ما شـــوهت ... غير السـلام وطيفه المكدود
والحاكم المانى ، ورب مسلط ... يقضى بحكم ليس بالمردود
فإذا العـدالة قهقهات ممربد ... عبثت بجفنيه ابنـة العنقود
وإذا الضمير العـالمى مطية ... بانت تصرفها شراذم « هود »

* * *

يا حاقدين تذكروا تاريخكم ... بالأمس إن الأمس غير بعيد
أيام كان الموت يجثم فوقكم ... والنار فى الآفاق ذات وقود
والأرعن المجنون يشمل زيتها
فى الأرض ، فى الأجواء ، فوق البيد
والوطن العربى يحرس مجدكم ... بيدى مغيث فى الخطوب نجيد
وجراحكم وهى العميقة لم تنل ... لولاه من برء ولا تضميد
لكنه طبع القراسنة الألى ... جبلوا على غدر وكذب وعود
هم أرهقونا غاصبين وكبلوا ... أوطاننا بسـلاسل وقيـود
واستنزفوا منا الدماء فما شفوا ... غلا ولا نقموا حشا المفئود
فى كل يوم ألف حر ترتوى ... منه الرمال دماً ، وألف شهيد
فى مصر ، فى بغداد ، فى سورية ... فى المغرب الأقصى وكل صعيد
وعلى فلسطين استفزوا عصبة ... ما بين آفاق وبين طريد
وتآمروا ألا يروها حـــرة ... تحيا بلا كدر ولا تنكيد